المحور الثاني
انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

أولا:مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي:

1. الفتوحات الإسلامية:

كان أول اتصال للعرب المسلمين بالصحراء الكبرى الإفريقية عندما وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع إلى صحراء برقة في السنة الثانية للهجرة، حيث وصل حسب رواية ابن عبد الحكم إلى برقة وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها له جزية، ثم وصل الى زويلة التي تعد أول بلاد السودان. ، وبعد فتحه لطرابلس الغرب فتح ودان (قرب مدينة زويلة)، وفتح أيضا مدينة فزان (جنوب طرابلس)، وذلك عام 46 للهجرة/666م، بالإضافة إلى مدينة كوار (الواقعة جنوب فزان). أما في ولايته الثانية، فيكون قد وصل إلى السوس الأقصى، وكان ذلك عام 62هـ/685م.

بينما نجد أن البكري يشير إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى أبعد من ذلك، و أنه بلغ مدينة نفيس، التي تقع في الركن الجنوبي من بلاد السودان بمحاذاة البحر المحيط، اين فتحها، و بنا فيها مسجدا و أصابوا فيها غنائم كثيرة.

و بعد هذه الرواية لم نجد إشارات أخرى عن الفتح الإسلامي في بلاد السودان، مما يجعلنا نعتقد بأن الفتوحات الإسلامية الأولى لم تتجاوز الشواطئ الجنوبية للصحراء، ولم *تتوغل إلى بلاد السودان، ولكن* الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف عند ذلك الحد، بل هناك مصادر عربية تتحدث عن استمرار عملية الفتح في عهد الأمويين، حيث يكون عبد الله بن الحبحاب قد أرسل سنة 116هـ حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى ، ولم يترك قبيلة إلا و فتحها و سباها.

ورغم ذلك كله، فإن تلك الفتوحات التي بدأت منذ صدر الإسلام، و رغم قدمها، إلا أن دورها بقي بطيئا في نشر الإسلام، ذلك أن أكبر فترة لانتشار الإسلام في المنطقة، كانت خلال عهد المرابطين.

2. دور التجار الإباضية:

كانت الدولة الرستمية في تيهرت إمارة إباضية، و كان للأئمة الإباضيين وعلماؤها، أهل علم و صلاح و دعوة، أينما حلوا أخذوا معهم علمهم و صلاحهم ودعوتهم يدعون للدين الإسلامي و عقيدة التوحيد، و نشر مبادئ و خلق الإسلام و ذلك من خلال التجارة التي كانوا يمتهنونها و خاصة التجارة مع بلاد السودان. وقد حرص الأئمة الرستميين على أن يكون ضمن قوافلهم المتجهة نحو بلاد السودان رجال العلماء و الفقهاء، فالإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب لما كان صغيرا حاول الذهاب إلى السودان ضمن قافلة التجار التجارة، لكن أباه منعه عن ذلك بسبب إخفاقه في مسألة تتعلق بالربا، و هو ما يبين حرص الأئمة الرستميين على اختيار النخبة ذوي العلم الغزير بالإضافة إلى الخبرة التجارية لممارسة هذا النشاط في أرض غير المسلمين، فالهدف من تلك الرحلة التجارية كان نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في نفس الأماكن التي كانت تعرض فيها سلعتهم للتجارة، فكان التاجر الاباضي(الذي هو في الحقيقة من نخبة العلماء)، ينقل ديانة التوحيد وأخلاق الإسلام ومبادئه إلى قلب الممالك السودانية.

فلقد ورد في المصادر أن هذه النخبة من الائمة و التجار و الأمراء الإباضية احتكوا بنظرائهم من النخبة السودانية من ملوك و الأرستقراطيين التجار من ممالك إفريقيا من خلال نشاطها التجاري، فانبهر السودان بعلمهم و حسن أخلاقهم ونظافة بدنهم وصدقهم وأمانتهم، فبوؤوهم مكانة عظيمة في ممالكهم، حتى كانوا يتخذون منهم الكتاب والوزراء وأمناء خزينتهم، و أقاموا علاقات دبلوماسية مع ملوك غانة ومالي و سنغاي و كانم وبورنو، وحدث تعايش كبير بين النخبة الرستمية و المسلمة و النخبة السودانية الوثنية، وهو جعلهم يتأثرون بهم في عاداتهم و طريقة لبسهم و مأكلهم و سائر نحلهم، و بطبيعة الحال فقد انتقل تأثير النخبة الرستمية إلى العقيدة و الدين، فبدأ ملوك السودان يعتنقون الإسلام على ايدي هذه النخبة الجزائرية.

لكن دور التجار الإباضية و تأثيرهم اقتصر فقط على الطبقة الحاكمة و الارستقراطيين الذين كانوا يتعاملون معهم و يحتكون بهم بينما بقيت الرعية و أغلبية الشعب السوداني وثنيا

3.دور المرابطين:

إن الإسلام ظل ينتشر بين صفوف الشعوب السودانية من طبقة التجار أولا، ثم انتقل إلى طبقة الحكام ورجال الحاشية، لكن بوتيرة أقل، بحيث استغرقت هذه الفترة حوالي قرنين من الزمن، أي من القرن الثاني للهجرة/6م إلى القرن الرابع للهجرة/10م. لكن بمجرد انتهاء القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة حتى عرفت أرض الصحراء الكبرى حركة سياسية اتخذت طابعا دينيا، وعرفت على إثرها أرض السودان تسارع في وتيرة أسلام أهلها، ألا وهي حركة المرابطين. حيث عرف الإسلام بفضلها تغلغلا حقيقيا في السودان الغربي والأوسط، فانتشر لأول مرة في منطقة السنغال الأعلى و السنغال، و شواطئ بحيرة تشاد، و اكتسب الدين الإسلامي بذلك اعترافا رسميا في المجتمعات الإفريقية بعدما قبل به الحكام و الأمراء.

فبعدما تزعم الفقيه السوسي عبد الله بن ياسين قبائل جدالة الصنهاجية ثم دخلت قبيلة لمتونة في دعوته، و غزا قبائل الصحراء ، ودانت له و لدعوته المرابطية، قام خليفتاه يحي بن عمر و أخوه أبي بكر بن عمر بتوجيه دعوتهما إلى داخل الصحراء، حيث توجه أبو بكر بن عمر و ابنه يحي على رأس جيش من المرابطين باتجاه بلاد السودان لنشر الإسلام في مملكة غانة الوثنية. حيث تم إخضاعها الواحدة تلو الأخرى. وكان الأمير أبو بكر يخير أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الحرب إلى أن سقطت العاصمة الغانية كومبي صالح في أيدي المرابطين عام 469هـ/1076م، بعدما قتل عدد كبير من سكان غانة السوننكي

ويجب أن نشير إلى أن المرابطين قاموا بعمل دعوي سلمي داخل مملكة غانة التي سقطت بين أيديهم ولم يرغموا سكان غانة السوننكي على إتباع الدين الجديد كما تدعيه بعض الدراسات الغربية، حيث قام أبو بكر بن عمر بإقامة عدد من الرباطات و المساجد وبالتالي كثر عدد الداخلين إلى الإسلام،كما سمح لملكهم بالبقاء في الحكم تابعا للمرابطين ولم يعزله.

إن مجهودات المرابطين في نشر الإسلام كانت في البداية فردية وبسيطة، ثم تطورت إلى جهود جماعية خاصة عندما تعلق الأمر بنشره بين سكان المملكة الغانية، حيث اشترك في ترسيخه الدعاة المرابطين الذين كان يرسلهم الشيخ عبد الله بن ياسين إلى القبائل الزنجية بعد تدريبهم في الرباطات وعلى أيديهم أسلم ملك التكرور "وار جابي" وملك سلي الذي حسن

إسلامه، فكان هؤلاء الدعاة المرابطون يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وتعاليمه.واشترك فيها أيضا ملوك السودان أنفسهم وكذا الأسر الحاكمة، خاصة بعد الاستيلاء على العاصمة كومبي وإسلام أهلها، وتحمّس ملكها تنكامين لنشر الإسلام.

و مهما يكن فإننا يجب أن نعترف بأن موجة اعتناق الإسلام الأولى في بلاد السودان، سواء كانت بدور من التجار أو الفقهاء، أو المرابطين، لم تشمل كل شرائح المجتمع السوداني، أو على الأقل لم يكن إسلام من اسلم منهم إلا إسلاما سطحيا، بينما نجد الفئة التي كانت السباقة لاعتناق الإسلام و فهمته و اقتنعت به، و من ثم وعت الرسالة التي يرمي إليها هذا الدين ، إنما هي الطبقة الأرستقراطية من التجار الكبار و رجال الدولة و في مقدمتهم فئة الملوك والأمراء الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام و الالتزام بتعاليمه فقط، و إنما تحولوا إلى دعاة حقيقيين من خلال مساهمتهم في نشر الإسلام في صفوف رعاياهم الذين بقوا متمسكين بدياناتهم التقليدية القائمة على الوثنية والسحر وعبادة أرواح الأجداد وغيرها. أو أولئك الذين لم يستوعبوا بعد مقاصد هذا الدين الجديد، كما شارك ملوك آخرون في الجهاد ضد الكفار من اجل إعلاء كلمة التوحيد.

4. دور الطرق الصوفية:

رغم أن الإسلام ثبيت أقدامه كدين رسمي لعديد من الممالك الإسلامية في السودان الغربي، وازدهرت العديد من المدن السودانية كحواضر للثقافة العربية الإسلامية، مثل تنبكتو و جاو و جني ولاتة، إلا أن المناطق الريفية و الأدغال بقيت تعاني من ضعف في الدعوة الإسلامية نتيجة تمركز النشاط العلمي و الدعوي في الحواضر دون غيرها من المناطق، وهذا ما نتج عنه انحراف في الدين واختلاط العقائد الإسلامية بالمعتقدات الوثنية التقليدية، في ظل انتشار الجهل بأمور الدين فاصبح الإسلام يقتصر عندهم على الشهادتين و أداء الصلاة في أحسن الأحوال.

إن مهمة إصلاح الدين وتعليم الناس فقد وقعت على عاتق الطرق الصوفية التي كان لها الدور الأعظم في تنظيم سلوك الأفراد و تهذيب أرواحهم، و تقويم سلوكهم و ربطهم حول الشيخ الذي أعاد اللحمة للمجتمع الإفريقي المسلم من خلال عمل قاعدي متدرج يبدأ من الزاوية ينتهي عند مشروع الدولة الإسلامية.

أ. الطريقة القادرية:

وكانت الطريقة القادرية هي أول طريقة صوفية وصلت إلى الغرب إفريقيا، و كانت مدينة تلمسان الجزائرية هي البوابة التي انطلقت منها الطريقة القادرية نحو الصحراء، وذلك مرورا بمراكش المغربية بواسطة العالم المراكشي الشيخ ابي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي (ت 594هـ/1197م) بعد مقابلته للشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تُنسَبُ الطريقة القادرية إليه خلال رحلته إلى الحج، حيث أخذ عنه التصوُّف في لقائهما في الحجِّ، ولما رجع إلى بلاد المغرب استقر ببجاية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، ونشر بها العلم وتعاليم الطريقة. وهكذا أخذت هذه الأخيرة في الانتشار في كامل بلاد المغرب، وذلك وغيره، لتنتقل إلى الصحراء بواسطة عدة شيوخ، كعبد السلام بن مشيش وغيره لتنتقل إلى الصحراء والواحات، ومن توات في أقصى جنوب غرب الجزائر؛ حيث تم ذلك بفضل العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي نشر الطريقة أولا بمنطقة توات خلال القرن التاسع الهجري/15م، إذ بدأ ذلك بتأسيس زاويته هناك بغرض نشر الإسلام وتدريس تعاليم الطريقة القادرية.

وقد انتقلت بعدها إلى ما وراء الصحراء الكبرى حيث واصل المغيلي نشاطه الدعوي للطريقة هناك أيضا، حيث نشر الطريقة القادرية بمنطقة توات وأسس بها زاوية بقصر بوعلي في أواخر القرن التاسع الهجري/15م، إذ كان لها إشعاعُ كبير في منطقة توات وغرب إفريقيا.

بعد وفاة الشيخ المغيلي ظهر فرغ آخر للقادرية عرفت باسم الطريقة البكائية، وذلك في الصحراء الجزائرية في القرن (10هـ/16م) وامتدت إلى ساحل صحراء إفريقيا التي تفرعت عن الطريقة القادرية ،حيث أسسها الشيخ أحمد بكاي الكنتي الذي التقى المغيلي بتوات واخذ عنه أوراد الطريقة، وأصبح رئيسا لها في الصحراء الكبرى. كما عملت الأسر الصوفية التواتية بدورها على نشر الطريقة البكائية في السنغال و منطقة فوتا جالون وأسسوا مراكز للطريقة في كنكان، وتمبو، و في بلاد المندينغ، و وصلت إلى غاية غينيا.

ب. الطريقة التيجانية:

تنتسب إلى مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني الجزائري الذي ولد بعين ماضي بولاية الأغواط، وانتشرت في إفريقيا جنوب الصحراء عبر الصحراء الجزائرية انطلاقا من بوسمغون، عين ماضي تماسين، قمار ثم لقد سافر إلى مدينة فاس المغربية في عام 1758م بحثا عن مشائخ للطرق الصوفية.

وتمثل دور الطريقة في تصحيح المعتقد الديني ونشر الإسلام بين الوثنيين ونشر العلم وبناء المدارس والتصدي للاستعمار، من بلاد المغرب انطلقت من المغرب لتشمل موريتانيا بواسطة شيخ يدعي (محمد الحافظ) الذي كان أحد مريدي الشيخ أحمد التجاني في مدينة فاس المغربية. وبهذا أصبحت الطريقة التيجانية الطريقة الصوفية الأولي في شمال إفريقيا ، أي أوسع انتشارا، وأكثر تمثلا في المناسبات الرسمية.

ومن الأوائل الذين نشروها في إفريقيا الحاج عمرتال الملقب بالفوتي (نسبة الى فوتا تورو) الذي يقول عنه الشيخ آدم الألوري: « **وأعظم من نشر هذه الطريقة في غرب إفريقيا هو الحاج عمر الفوتي**»

ج. الطريقة السنوسية:

تنتسب الطريقة السنوسية إلى مؤسسها وشيخها محمد بن علي بن السنوسي العربي الإدريسي الجزائري (1201– 1275 ه /1787–1859م)ولد بضاحية مايثا الواقعة بضفة وادي الشلف بمستغانم بالجزائر، في أوائل سنة1221ه/1807م، أول زاوية أسسها كانت لكن وفاة شيخه أحمد بن إدريس جعله يغادر الحجاز ويعود مرة أخرى إلى بلاد المغرب أين وجد أتباعه السنوسيون قد شرعوا بأمر منه في بناء الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري و كانت أول زاوية يقيمها السنوسي خارج الحجاز، وأطلق عليها أم الزوايا، كما أسس عدة زوايا في برقة و الجبل الأخضر بلغت حوالي عشرين زاوية، و في سنة 1856م نقل مركز حركته إلى واحة الجغبوب، فكانت نقطة انطلاق حركته نحو القبائل الوثنية في إفريقيا جنوب الصحراء.

أسست الطريقة السنوسية عدة زوايا في غرب إفريقيا وتمكن السنوسيون من بسط نفوذهم هناك ، حيث وصلت دعوتهم إلى أقصى الصحراء الكبرى ، ومرورا ببحيرة تشاد وما جاورها من إمارات سواء كانت إسلامية أو زنجية وثنية.

ثانيا. الحركات الاصلاحية في غرب افريقيا خلال القرن التاسع عشر

1. حركة جهاد أحمدو لوبو في منطقة ماسينا:

شملت حركة الشيخ احمد اللوبو منطقة ماسينا و منطقة واسعة من شمال شرق جمهورية مالي الحالية، وينحدر الشيخ أحمدو من إحدى العشائر الفولانية المسلمة التي هاجرت من منطقة ماسينا، وعاشت مع شعب البمبارا حيث كانت الوثنية منتشرة هناك، وُلِ أحمدو لولو باري في قرية **يوغو ماسيرو** سنة1775م (وهناك من يقول في سنة 1773 ومنهم من يقول في 1776م).

نشأ أحمدو يتيما حيث فقد والديه و هو طفل صغير، فكفله أخواله وتلقَّى أحمدو ثقافته الإسلامية من شيوخ أسرته، حيث حفظ القرآن في صباه ثم الْتَحَق بمدينة جنى التي كانت من المراكز الإسلامية الكبرى في غرب إفريقيا، حيث تعلَّم التفسير والفقه وعلوم الدين الأخرى. وقد غرف الشيخ احمدو الطريقة القادرية على يد الشيخ كبرا فارما، ولما اكمل دراسته عاد الى بلدته بماسينا أين اخذ يعلم الأطفال و يعض الناس و يرشدهم إلى الدين القويم، حيث أصبح يلقب بالإمام، و قد تأثر بالحركة الاصلاحية و الجهادية لعثمان بن فودي واستلهم منها منهجه و دولته، و يقال انه سافر الى بلاد الهوسا و جاهد الى جانب الشيخ عثمان هناك، وأرسل الشيخ أحمدو بالفعل إلى دولة سوكوتو لتوطيد العَلاقات مع خليفة الدولة محمد بلو (1817– 1837م)، وبالرغم من مساعدة الخليفة له وإرساله الكتب التي طلبها ليَسترشد بها، إلا أن الشيخ أحمدو رفض التبعية لدولة سوكوتو بمجرد أن أعلن الجهاد، كما امتنع عن دفع الضرائب إلى الخليفة، واستمرَّ يَسْتَلْهِم من دولة الفولاني الْعَوْن الرُّوحي، ويعتمد مؤلفات الشيخ عثمان وعلماء سوكوتو في كثير من أعماله وتنظيماته.

أخذ يسعى لنشر المبادئ التي نادى بها أولًا بين الشباب في المدن وخارجها، وانضمَّ إليه أفراد عشيرته، هذا إضافة إلى قلَّةٍ مِن المسلمين في المناطق الزراعية. واستقرَّ الشيخ في مكان يُدعى روندى سيرو بالقرب من مدينة جنى، ومِن هناك حَمَل لتلاميذه دعوته، واستمرَّ

يَعِظ الناس، لمدَّة تقترب من عشرين عامًا، ثم جاهر بتحدِّيه للحاكم وأتباعه، حيث اتهمهم بممارسة العادات والتقاليد الوثنية التي تَبْعُد عن الدِّين الصحيح، كما اعتبرهم أداة في أيدي أسيادهم من حكام البمبارا، وهاجم بالفعل العلماء داخل المدينة نظرًا لتهاونهم في تطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت وضعية ماسينا خلال القرن 19 يسودها التناحر بين القبائل المسلمة و غير المسلمة، وقد عانى المسلمون من اعتداءات قبائل البمبارا الوثنية في سيغو، و قبائل الأرما (احفاد الجيش المغربي الذي احتل سنغاي خلال القرن 16م) الذين استعادوا قوتهم، خاصة بعدما تحالفا ضد الشيخ أحمدو مما جعل هذا الاخير يعتبر إلان الجهاد ضدهم اصبح واجبا شرعيا. فثار ضد سلطات ماسينا عندما نصح أتباعه بقتل ابن الحاكم؛ لأنه اغتال أحد أتباع الشيخ أحمدو، وبعد هذا الحادث اضطر الشيخ أحمدو إلى الهروب خوفًا من انتقام الحاكم، وتوجَّه الشيخ مع قلَّةٍ مِن أتباعه إلى مدينة سوى، وفرض سيطرته على كل منطقة سيرو، ولقَّبَ نفسَه أمير المؤمنين، بل وادَّعى أنه آخر الأئمة الاثني عشرية. فأعلن الجهاد على ماسينا وأخضعها لنفوذه سنة 1810م، ولقد نالت حركته ارتياحا في صفوف المسلمين في غرب افريقيا، فلقد عينه الشيخ عثمان دان فوديو أميرا على نمسينا و لقبه بالشيخ.

استطاع بعد فترة وجيزة أن يُصبح سيِّدًا لمنطقة واسعة، وضمَّ داخل حدوده كلًّا من مدينتي جنى وتمبكت، كما استولى على مدينة كوناري بعد صراع مع حاكمه. كما ضمت بوركينافاسو الحالية.

وفي هذه المدينة التي تقع على الشاطئ الأيمن لنهر باني أَسَّس في عام 1815م مدينة (حمد الله)؛ لتكون حاضرة لدولته وعاصمة لدولة ماسينا الإسلامية، وأحاطها بسور ضخم، وضمَّ إليها بعض الإقطاعيات الزراعية خُصِّصت لرجال الدين والعلماء، وغيرهم من المسلمين.

وقد قام الشيخ أحمدو بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية في دولته، فأنشأ بيتًا للمال، وأقام نظامًا عسكريًّا للدفاع عن حدود الدولة، وعيَّن الأُمراء في مختلَف إمارات الدولة، وقسم العاصمة "حمد" إلى سبعة أحياء، يُشرِف على كل حيٍّ من أحيائها قاضٍ، وعيَّن قاضي القضاة على رأس هؤلاء الحكام، أما بالنسبة للجهاز السياسي للحُكم فقد اعتمد الشيخ أحمدو

على مجلس الأربعين الذي يَرْأَسه أحد مشاهير العلماء، وبالرغم من أن الشيخ أحمدو قد حمل لقب أمير المؤمنين، إلا أنه كان عضوًا في المجلس، وكان يُفوِّض الكثير من سلطاته إلى زملائه أعضاء مجلس الأربعين.

-أ تأسيس دولة ماسينا وتنظيمها :

انتهى الشيخ من بناء عاصمته، جمع علماء البلاد لاستشارتهم في كيفية تنظيم الدولة وادارتها، وقال لهم: "لا أريد أن أحكم البلاد لوحدي، ولا بد من مساعدة الآخرين، ولا بد من اجتماع الكل واتحادهم لتكون دولة منظمة؛ وطلب منهم أن يقدموا له مشروع الحكم، وبعد أشهر حضر له العلماء المشروع ويتكون من مجلس للشورى يسمى بالفلانية باتوماودو؛ أي مجلس الكبار متكونً ا من أربعين عاما ونظم جيدا حتى أصبحت من أرقى الدول في زمانه.

ب . تنظيم الدولة :

من حيث التنظيم الإداري، فقد قسم الامام أحمدو لوبو دولته إلى خمس مقاطعات وهي: إمارة دنيري، وإمارة فكلا كناري، إمارة هيري سينو، إمارة نيدوبي، إمارة ماسينا، ويرأس كل إمارة أمير يعاونه أحد الأمراء الأكفاء، ويتمتع الأمير بكامل السلطات العسكرية والقضائية .ٍ إلى سبعة أحياء يشرف على كل حي قاض قسم العاصمة خاص، وعين قاضي القضاة على هؤلاء، وجعل للمدينة أربعة أبواب وأحاطها بسور ضخم، وبنى في وسطها مسجدً ا وجعل لكل حي من أحياءها سوقا مع السوق المركزي، وجعل لكل سوق مشرفا.

- تأسيس المجالس :

لقد اعتمد الشيخ أحمدو في تنظيم دولته ثلاثة مجالس بعد أخذه بالرأي الاستشاري وهي : ً مجلس الكبار: ويتكون من أربعين فردا من كبار وعقلاء وعلماء البلاد، وأوكل رئاسته لأحد أكبر وأشهر العلماء فيها- . ّ مجلس المحكمين :ً ويتكون من ستين شيخا من قدماء الشيوخ المجاهدين، ويترأسه الشيخ وفي حالة اختلاف في الآراء بين المجلسين 3 أحمدو نفسه بمعية اثنين من الأعضاء .ً المذكورين آنفً ا يختار أربعين عضوّ ا بالقرعة من المحكمين الستين لاتخاذ قرار نهائي في المسألة محل الخلاف. ولا يمكن الطعن والاستئناف

في هذا القرار، ويمكن للأمير تفويض بعض من سلطاته لأعضاء المجلس، والجدير بالذكر أن أعضاء هذه المجالس يشترط فيهم ألا يقل سن العضو منهم عن الأربعين سنة .وكان للقضاء في دولة أحمدو لوبو أهمية خاصة، لاعتباره صمام الأمان لحفظ الحقوق وإرساء العدل، فكان القضاة يستمدون أحكامهم من الكتاب والسنة ، ويتمتعون باستقلالية تامة عن الإدارة ،حتى أن القاضي يمكنه مقاضاة الأمراء أمام المجلس الاستشاري، إذا ما ثبت اتهامهم أو تورطهم في قضايا كالإخلال بالمهام الموكلة إليهم، أو عدم قيامهم بواجباتهم على الوجه الكامل، وكان كل قاض يتولى إدارة شؤون القضاء، وينظر في الخصومات و النزاعات، ويصدر الأحكام القضائية، وعلى رأس القضاة قاضي القضاة الذي يعد بمثابة وزير العدل، ومن اجل تسيير إجراءات المحاكمة وعرض السجناء على القاضي جعل محكمة العاصمة بجوار السجن

-تنظيم الجيش:

أنشأ الشيخ أحمدو لوبو جيشا قويا، ونظمه تنظيما دقيقا للدفاع عن البلاد، وجعل في كل مدينة قوات من الجيش، وعين في كل منطقة قائدا عسكريا، وعين بن عمه بالبوبكر بولو، قائدا عاما للجيش، وقد سهر الشيخ احمدو على تفقد الجيش ومراقبته باستمرار؛ كما جهزه بأسلحة حديثة، كان يقتنيها من التجار الاوربيين، وأدخل الأساليب الحديثة في تدريباته، اما التجنيد فكان الزامي ،اذ يجب على كل أسرة أن تبلغ عن إبنها اذا ما بلغ عشرين سنة، ولقائد الجيش تجنيده أو تسريحه حسب الحاجة وصلاحية المجند، لذلك كان انتقاء المجندين من بين ذوي البنية الجسدية السليمة، المتميزة بالقدرة والحيوية والنشاط.

ولم يتوقف الشيخ أحمدو في نشاطه الدعوي والجهادي بتنظيم الدولة وحضور مجالس الدرس إلى أن وافته المنية عام 1260-هـ /1844م، ثم استخلفه ابنه أحمد بن أحمدو لوبو الذي استعاد هيبة الدولة بعد التمرد من بعض السكان، وسار على نهج والده في الحكم، وبعد وفاته 1852م خلفه ابنه أحمد بن أحمد بن أحمدو لوبو (أحمد الثالث) الذي قتل في حروبه مع الحاج عمر الفوتي .ّا تقدم إلى أقاليم إفريقيا جنوبّ يمكن القول، بأن دخول الطريقة القادرية مم الصحراء، قد أسهم في ترقية المجتمع من خلال نشر الإسلام وتطوير التعليم ومناهجه، كما كان لها تأثير فعال في ترقية الحياة السياسية في المنطقة، سواء بواسطة

كتابات العلماء ومشايخ الفقهاء، أو ببروز شخصيات من أتباع الطريقة القادرية ساهموا في تأسيس ممالك وإمارات لشعوب تلك المناطق .ُويعد الشيخ سيد أحمد البكاي من أوائل الدعاة للطريقة القادرية في القبائل يد الشيخ سيد المختار الكبيرّ الصحراوية والافريقية، والتي بلغت أوجها على الكونتي، الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ما بين ولاتة وتمبكتو ومنطقة توات جنوب غرب الجزائر .والحقيقة أن الطريقة القادرية عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب إفريقيا بعد أن تزعم عثمان بن فوديو عملية الاحياء القادري بتلك المناطق الافريقية .ّ ومهما يكن، فإن الطريقة القادرية قد أد ت في العالم الإسلامي عموما وفي افريقيا جنوب الصحراء خصوصا دورا سياسيا وعسكريا لا يمكن للباحث إنكاره، فقد شهد بدورها السياسي والعسكري كثير من المستشرقين والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المستشرقين الإنجليزي مرجيلوت، والمستشرق الألاني شاخت، والمؤرخ الفرنسي هنري طيراس، والمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان، والكاتب الفرنسي ريشيه، والأستاذ ديبون، والضابط الفرنسي كوبولاني الذي قتل في سنة 1906م، والجنرال الفرنسي كورو ، والأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي، وغيرهم كثير.

ثانيا: حركة الجهاد الإسلامي في منطقة التكرور (الشيخ عمر تال الفوتي)

امتدَّت حركات الجهاد إلى مناطق أخرى من غرب القارة، حيث استطاع الحاج عمر الفولاني نقل جهاده إلى بلاد السنغال، تلك المنطقة التي كانت قد دخلت في الدين الإسلامي، وعَرَف سكانها مبادئ الدين منذ أيام عبد الله بن ياسين، وأَخلَص أهل السنغال لدعوته، وشاركوا في جهاده، وتشرَّبوا الحضارة العربية الإسلامية، وأَخلَصوا في أداء الشعائر الدينية؛ لذا لم يكن غريبًا أن يَظهر في هذه المنطقة وفي تلك التربة الصالحة رجل مجاهد آخر يدعو الناس إلى الالتزام بمبادئ الإسلام، ذلك الرجل هو الحاج عمر بن سعيد، الذي وُلِدَ في قرية حلوار بالقرب من بودور على الحدود السنغالية الموريتانية إلى الشرق من مدينة سان لويس وذلك في عام 1797م، وكان الحاج عمر هو الابن الرابع للشيخ سعيد، وينتمي إلى إحدى الأُسَرِ التي قاومت الوثنية في هذه المنطقة، كما قاومت الاستعمار الأوربي.

وفي عام 1838م انتقل الحاج عمر إلى منطقة ماسينا، وظلَّ هناك بعض الوقت في ظلِّ حاكمها الشيخ أحمدو لوبو، ولكنه عندما ذهب إلى منطقة سيجو طردته السلطات هناك، فرحل إلى منطقة كانجاب، ثم انتقل إلى منطقة (كان)، حيث استمرَّ سبع سنوات يعظ الناس، ويُعلِّمهم مبادئ الدين الإسلامي.

استقرَّ الحاج عمر في النهاية في دنجوري عند التقاء نهر فوتا جالون مع نهر بامكو وبوندو، وقضى الحاج عمر الفترة منذ عام 1845 حتى 1850م في تدعيم دولته، فبنى حصنًا في دنجوري، ومن هناك بدأ يُعلِن الجهاد ضدَّ الوثنية، وبدأ يغزو إمارة البمبارا في كارتا، واستطاع أن يُلحِق الهزيمة بجيشها في عام 1854، واستولى على أهمِّ المدن بها، وكان يأمُل أن تساعده السلطات الفولانية في ماسينا في شنِّ هجوم مشترَك على المدن بها، ولمَّا رفض حُكَّام ماسينا دعوته اتجه نحو الغرب لمهاجمة بعض الإمارات السنغالية في حوض السنغال الأوسط، وهناك الْتَقَى بالقوَّات الفرنسية في عام 1857م والْتَحَم بها، واضطر إلى الرجوع للشرق.

وأدرك أن التوغُّل الفرنسي هناك سيجعل من المستحيل بناء دولته على نهر السنغال، فكان انسحابه إلى الشرق نواة لتكوين إمبراطورية من مملكة البمبارا وماسينا.

وأثناء اشتباكات الحاج عمر مع الفولاني في ماسينا، قُتِل الحاج عمر في عام 1864م، وهو في قِمَّة قُوَّته، لكن قبل أن يَدْعَم إمبراطوريته، وترك لابنه أحمدو الشيخ مسئوليات جسامًا، وصراعات أُسَرِيَّة، وحركات تمرُّد مستمرَّة، إضافة إلى توغُّل فرنسا في منطقة ماسينا، وهكذا صار أحمدو الشيخ خليفة لهذه الإمبراطورية بعد وفاة والده.

ومنذ البداية صار موقف أحمدو الشيخ صعبًا؛ ذلك أنه في الوقت الذي بدأ يَدْعَم فيه سلطاته في سيجو، أخذ التوغُّل الفرنسي يشقُّ طريقه نحو إمبراطوريته، وكان أحمدو يتطلَّع إلى تطوير النُّظُم الاقتصادية في دولته، ويسعى إلى إقامة عَلاقات تجارية مع الدول المجاورة ومع الفرنسيين في حوض السنغال، ومع البريطانيين في جامبيا وسيراليون؛ ونظرًا لاتساع الإمبراطورية فقد حَكَم أقاربه أجزاء منها بصورة شبه مستقلَّة، حيث حكم أخوه أجوبو منطقة دنجوري في الجنوب، وحكم ابن عمه –ويسمى التيجاني– منطقة ماسينا بعد أن استعادها عقب وفاة الحاج عمر في عام 1864م.

وتقدم الفرنسيون في حوض النيجر حتى مدينة ساي ومنها إلى بوسا؛ مما أدى إلى اصطدام مع البريطانيين الذين كانوا يَدْعَمون نفوذهم في نيجيريا، وبدأت سلسلة من المفاوضات بين الدولتين لتقسيم هذه المنطقة.

هكذا انتهت إمبراطورية الحاج عمر في بلاد التوكولور بعد أن حقَّقت هذا النصر الرائع، وبعد أن نجحت في تقوية رابطة الوَحدة بين أتباعه الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة، ولولا الاستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة إسلامية في إفريقيا.

وإذا ألقينا نظرة على هذه الإمبراطورية نجد أنه بنى إمبراطورية إسلامية أكثر مركزية عن إمبراطورية الفولاني في سوكوتو، أو دولة الشيخ أحمدو لوبو في منطقة ماسينا، وقد تكوَّنت هذه الإمبراطورية في منطقة عَرَفت الإسلام منذ قرون خَلَتْ، بدلًا من الهجوم على الحكام المسلمين بسبب تهاونهم في تطبيق الشريعة الإسلامية، وكان الحاج عمر قد اعتنق مبادئ التيجانية، وهي أحدث من الطريقة القادرية التي انتهجها كل من الشيخين عثمان بن فودي وأحمد لوبو.

3. الإمام أحمد بن إبراهيم وجهاده بالحبشة

أ .الظروف التي ظهر فيها أحمد بن إبراهيم:

خلال العصور الوسطى كانت منطقة القرن الإفريقي التي تضم اليوم بلاد الصومال وإثيوبيا وإيريتيريا وجيبوتي منطقة صراع بين مملكة الحبشة المسيحية الذين كانت تمثلها الأسرة السليمانية وملكها الملقب بالنجاشي، وبين المسلمين الذي كانوا منتشرين ضمن دويلات إسلامية صغيرة تسمى بلاد الزيلع أو بلاد الطراز الإسلامي(التي كانت تتكوم من إمارات كل من عدل، هرر، إيفات، دوارو، بالي، داره، هدية، شوا، ومملكة شرخة). ولم تكن الحدود ثابتة بين هذه الدول لهذا كان الصراع والغزو هو الوضع الذي ميز العلاقات بينهم وخاصة بين البلاد الزيلع المسلمة و مملكة الحبشة المسيحية.

ومع ظهور الأسرة السليمانية المتعصبة ملوك أحباش متعصبين للمسيحية خلال القرن 16م مثل النجاشي (لبنا دنجل) الملقب بذاود الثالث، وابنه كلاوديوس حيث عانى المسلمون

في عهدهم أياما عصيبة، حيث شنوا حروبا دامية على المسلمين الزيالعة، واضطهدوهم، وضموا أراضيهم إلى أراضي مملكة الحبشة المسيحية، وتقلصت مملكتهم إلى أن أصبحت تضم هرر فقط، والتي كادت أن تسقط نهائيا. ولم يكتف ملوك الحبشة بالاعتداءات بل تعدى بهم الأمر إلى العمل على تنصير مسلمي الزيلع إجباريا متخذين في ذلك كل الوسائل من ترغيب و ترهيب، وقيامهم بحرق المصاحف و تخريب المساجد، وتعذيب النصارى الذين اعتنقوا الإسلام، وانتهى بهم الأمر إلى فرض الجزية على الأمراء المسلمين الذي رضخ عدد منهم إلى شروط السلم مع الحبشة مثل سلطان عدل. الذي أصبح يحارب المسلمين باعتبارهم أعداء ملك الحبشة التي أصبح يدافع عن سياستها بحكم الصلح الذي بينهما خاصة بعد مقتل الامير شهاب الدين أحمد بدلاي.

في هذه الظروف ظهر احمد بن إبراهيم الذي تولى أمر المسلمين. وجمع كلمتهم ولقبوه بالإمام ، وبالغازي وبصاحب الفتح،، ولقبه الأحباش بالغراني (Gragn) أي الأعسر، ولقد عمل على التوغل إلى داخل الأراضي الحبشية فوصل إلى الأقاليم الشمالية و انتصر عليهم في عدة مواقع حتى كاد ان يفنيهم، وقد جاهد الإمام احمد الأحباش لمدة 12 سنة من سنة 1531 إلى 1543م، وكان يحارب بجيش قدر عدده بعشرة آلاف مقاتل إلى أن استشهد في إحدى المعارك.

ثانيا: مولده ونشأته:

ولد الإمام أحمد بن إبراهيم عام912 هجرية الموافق 1506ميلادية في في قبيلة "جدبورسي" وهي مدينة ساحلية تقع في شمال غرب الصومال (التي كانت جزءا من سلطنة عدل) عاصمة سلطنة عدل في عهد سلطانها الأمير محمد محفوظ، اشتهر باسم أحمد جران، وهو الاسم الذي اختاره لنفسه بعد أن أسلم، ولقب أيضا بالغران أي الأشول، ولقد كان ابنًا لقسيس في مقاطعة أيجو بالحبشة، ثم اتصل بالمسلمين وسمع بعض دعاتهم في مقاطعة عدل، فدخل الإسلام مقتنعًا به، متحمسًا لدعوته، نشأ أحمد في مملكة عدل صراع على

السلطة، بين الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التقليدية، التي تمثلها بصفة خاصة فئة التجار ومن يساندها من العلماء، وكانت هذه تدعو إلى دعم السلام مع الحبشة المسيحية ولو بتأدية الجزية، وذلك لضمان مصالحها الاقتصادية، وبين الفئة العسكرية من الصوماليين المسلمين، التي كانت تسعى للتخلص من التبعية الحبشية عن طريق الجهاد، والتوسع في أرض الحبشة وعلى العموم فإن الأمام أحمد كان في بداية حياته فارسا في جيش (الجراد أبون) أمير مقاطعة عدل، الذي كان رجلا صالحا أقام الحق وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وقتل قطاع الطرق وأبطل الخمور واللعب والرقص والطبول وعمرت البلاد وأحب الأشراف والفقهاء والمشايخ وسيطر على مملكته. وقد تم ذلك بعد أن نقل عاصمة دولة عدل في عام 1521 إلى مدينة هرر كانت الحبشة في ذلك الوقت تحت حكم الملك "لبني دنجل" واستغل فرصة ضعف هذا الملك الذي كان صغيرا في السن فكانت أمه الملكة هيلانه وصية عليه تتحكم في أمور الدولة وكان الملك الشاب يستهين بقوة المسلمين، لهذا لم تأخذ الأمر بحزم، ولقد تمكن الجراد أبون أن يتحكم في زمام الإمارة الإسلامية عدل بينما كان السلطان أبو بكر مجرد ظلا لنفسه.

هناك روايات تقول بان الإمام حمد كان الشقيق الأصغر للجراد أبون، الذي يكون قد أصر على ضمه إلى صفوف جيشه وهو في عمر 12 سنة فقط، وهو ما جعل الأمير محفوظ حاكم هرر يقول له: «لم يعرف الجيش في تاريخه دخول طفل في الثانية عشر من عمره... أيسرُّك أن تراه مذبوحا أمامك»، واستمر احمد غران في العمل في صفوف جيش أخيه جراد أبون إلى غاية مقتله من طرف بعض قبائل الصومال التي كانت ترى في إصلاحات الجراد ابون تهديدا لنشاطها في السلب والنهب وقطع الطرق، والذين كانوا مدفوعين ومدعومين من الأمير أبي بكر الذي كان يشعر انه لم يكن يملك من السلطة إلا الاسم أمام تعاظم مكانة و قوة الجراد أبون.

ب. ظروف إعلانه الجهاد:

بعد مقتلِ الجراد ابون من طرف قطاع الطرق استعاد السلطان أبو بكر زمام حكم إمارته، و كان السلطان ابو بكر من ذرية المجاهد سعد الدين، لكن حفيده كان خاضعا للأحباش، ضعيفا ظهر في عهده قطاع الطرق وشرب الخمور وكثر الظلم، مما أثار غضب الفقهاء وشيوخ الدين الذين اشتكوا من أمره بسبب تركه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانتشار المحرمات، ولم يجد الناس من ينصفهم ، ولما علم الإمام احمد بخروجه عن منهج الكتاب و السنة هرب من البلاد هو و جماعة من عساكره ولجؤوا إلى منطقة **(آبت)** وكان عدد خيولهم أكثر من مائة فنصبوا الجراد عمر الدين زعيما عليهم وأعلنوا تمردهم على الأمير أبي بكر، معلنين الجهاد، وكانت أول غارة قاموا بها على الأحباش كانت بهجومهم على احد بطارقة دوارو الذي قام بسبي نساء المسلمين و اخذ أموالهم و مواشيهم، فقتل من البطارقة عددا كثيرا ومن الجنود المسيحيين الآلاف، و غنم المسلمين ستين فرسا و عدد من البغال والعربات وحرروا أسرى المسلمين واستردوا مواشيهم المغتصبة و كان أول انتصار يحققه احمد بن إبراهيم على الأحباش.

وبعدها استشهد الأمير عمر الدين في إحدى المعارك، وكان الإمام احمد يحارب جبهتين الإمبراطور الحبشي المسيحي من جهة وسلطان عدل أبي بكر الذي غدر بهم وأعلن ولاءه للإمبراطور الحبشي. فدخل الإمام احمد في صراع مع السلطان ابي بكر انهزم فيها الإمام أحمد في البداية في معركة قرن و انسحب إلى مسقط رأسه في بلدة تسمى هبت، حيث كان السلطان يطارده من اجل القضاء عليه، لكن الإمام استجمع قواه و هزمه في موقعتين و هزمه و عاد الإمام منتصرا إلى هرر بينما هرب السلطان أبي بكر إلى عاصمته الأولى دكر. ورغم محاولات الفقهاء للصلح بينهما و تم الاتفاق بتقسيم السلطة بين أبي بكر و الإمام احمد، إلا أن الصراع تجدد مرة أخرى و حاول الفقهاء الصلح بينهما من جديد لكن السلطان آبي بكر رفض ذلك و أصر على التخلص من الإمام و أعلن الحرب من جديد، تمكن من خلالها الإمام احمد من قتل السلطان أبي بكر الذي حل محله أخوه عمر

الدين بن محمد كسلطان لعدل، فزال الشقاق وعاد السلم والوئام و ليتفرَّغ الإمام احمد بن إبراهيم لجهاد الأحباش وصدهم عن بلاد المسلمين و غزو بلادهم.

بعدها تمكن من قتل السلطان أبي بكر و تفرغ لمحاربة الإمبراطور، فمنع موظفيه من جمع الإتاوات من أراضي المسلمين، أو من أن يدخلوا عاصمة عدل هرر، و اتخذ راية له، ونظم أموره بتقسيم البلاد إلى خمسة أقسام و عين على كل منها أميرا و كان ذلك سنة 1527م.

ج. جهاده ضد ملوك الحبشة المسيحيين:

حقق الإمام احمد انتصارات عظيمة و فتح سلطنة دوارو، وقتل قائدها وسيطر على جنوبي شرق الجبشة، وسيطر على ايفات في سنة 935 هـ / 1529 في موقعة (**شنبر كوري**) أو (**صمبر كوري**) وأسر عدد كثير من المسيحيين بما فيهم بنت خالة الإمبراطور الحبشي وافتديت بخمسين ألف أوقية من الذهب.

ثم انتقل إلى محاربة بلاد الحبشة داخل أراضي المسيحيين، فلجأ الأحباش إلى التحالف مع البرتغاليين سنة 1526م. فلجأ الأتراك إلى مساعدة احمد بن إبراهيم وأمدوه بالجنود وبالأسلحة النارية و المدفعية، وبالتالي أحرز الأمير أحمد نصراً على الأحباش وأعقب ذلك في 1531 بدخوله "دوارو وشوه ومهره ولاسا"، واستعاد إمارات " بالي وهدية وسدامة " وهكذا لم يأت عام 1535 حتى كان المسلمين يسيطرون على جنوب الحبشة ووسطها مما اضطر الملك الحبشي للهروب من وجه الإمام، وهكذا اتخذت المعارك بين الطرفين صورة حرب دينية.

وكان نجاح الإمام في اقتحام أبواب عاصمة الملك الحبشي (أمهرا) أثراً كبيراً، وأصبح الإمبراطور مطاردا و لجأ إلى قمم الجبال، كما أدت انتصاراته إلى اعتناق عدد كبير من الأحباش للإسلام، وتمكن احمد من احتلال اكسوم نفسها. وبذلك سيطرت الجيوش الإسلامية على بلاد الحبشة بزعامة احمد بن إبراهيم ، وأخذت النصرانية في الانهيار تحت ضغط

المسلمين، و لكن وصول القوات البرتغالية لمساعدة المسيحيين أدت إلى استشهاد أحمد بن إبراهيم سنة 1542م.

بعدما استشهد احمد بن ابراهيم في احدى المعارك سنة 1543م، خلفه على قيادة المسلمين ابن اخته الأمير نور الدين بن مجاهد إماماً ليخلف خاله في الجهاد واستطاع أن يتصدى للجيوش الحبشية و الذي استطاع قتل الملك كلاديوس.